تاريخ شعراء العربية

العصر العباسي الثاني

أسامة بن منقذ



اعداد
الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مراحل حياته

وُلِدَ أبو المظفَّر ، مؤيَّدُ الدولة ، أسامةُ بن مرشد بن علي بن منقذ سنةَ ٤٨٨هـ . وكان والدُه قد تزهَّدَ وتخلَّى عن الإمارة لأخيه أبي العساكر " سلطان " ، وعكفَ في ليله على نَسْخ القرآن وتلاوته ، وفي نهاره على الصَّيْد ، وهو رياضته المفضَّلة .

نشأ أسامة في أسرة توارث أهلها الأدب والشعر والمجد ، وتلقّفَ علوم الدين واللغة عن كبار العلماء في شيزر من أهلها أنفسهم أو الطارئين عليها ، منهم أبو عبد الله الطليطلي .

وحفظ أسامة أشعاراً كثيرة ، وحفظ من شعر الجاهلية فقط عشرة آلاف بيت .

وتدرّب على الفروسية ، وظهرت بوادرُ شجاعته منذ صغره إذ قتل أفعى وحزَّ رأسها ، وهو طفل ، ولقي خلال إحدى رحلات صيده أسداً فصارعه وقتله .

وهذه النشأة العلمية الأدبية البطولية كانت تؤهّله ليرث الحُكم بعد عمه " سلطان " ، لأنّ أباه لو بقي في الحكم لآلَ ذلك الحُكمُ من بعده إلى ابنه أسامة ولكن أباه تنازل عنه إلى أخيه سلطان ، وأسامة سيلي سلطاناً فيه .

بَيْدَ أنّ عمّه تغيَّر عليه ، إذ رُزق أولاداً ، فآثرهم على ابن أخيه في ولاية العهد ، فغضب أسامة وترك شيزراً ، والتحق بعماد الدين الزنكي ، ليجاهد معه الصليبيّين .

عودتُه إلى شيزر

تعرَّضت شيزرُ فيما بعد إلى هجوم الأعداء الفرنجة عليها ، سنة ٥٣٣هـ فنسي أسامة آلام الجرح الذي أدماه عمّه ، وعاد إلى بلدته في قوّة زحزحتْ قوّات العدوّ الغاشم ، ورجع إلى بلده مظفَّراً ، وقدّر معظم آل منقذ له هذا الصنيع الإغاثي ، فالتفّوا حوله . وكان أبوه قد مات منذ سنتين قبل عودته فشعر بضرورة بقائه بين آله ليعوّضهم ما فقدوه من عطف أبيه .

لكنّ عمّه لم يرتحْ لبقائه في شيزر ، فأمره بمغادرتها ، ورأى أسامة أنّ من الحكمة الانصياعَ لأمر عمّه ، ليتفادى وقوعَ الفتنة بين أنصاره وأنصار عمّه ، فترك بلدته ورحل ، ولكنْ رحل معه في هذه المرة أسرته وأنصاره ، ولم يتّجهوا إلى مغترب واحد ، بل تشتّتوا في كل مكان .

زلزال شيزر

ما كان هؤلاء يدرون – حين خرجوا من ديارهم – أنّ ما يكرهونه من الغرْبة هو خير لهم ، ذلك أن شيزراً قد أخذها زلزال شديد من بعدهم ، فلم يَنْجُ من أهلها أحد ، وصوّر أسامة هذا الحدث في قوله :

حيَّا ربوعَكِ من رُبَاً ومنازلِ ... ساري الغمام بكلِّ هامٍ هاملِ (١)

وسَقَتْكِ يا دار الهوى بعد النَّوى ... وَطْفاءُ تسفَح بالهتُون الهاطلِ (٢)

أبكيك أم أبكي زماني فيك أمْ ... أهليكِ أمْ شرخ الشَّباب الراحلِ (٣)

درستْ منازلُهم وأوحشَ منهمُ ... مأنوسُ أنديةٍ وعزُّ محافِلِ (٤)

---

(١) ربا : جمع ربْوة ، وهي الأرض المرتفعة . ساري الغمام : السحاب الليلي . همى وهمل : هطل . (٢) النوى : البعد . وطْفاءُ . سحابة . هتون : مطر .

(٣) شرخ الشباب : أوّله ، وعنفوانه . (٤) محافل : مجامع ، مثلها الأندية .

واهاً لهم من عالمٍ ومعالمٍ ... وممنعاتِ عقائل ومعاقلِ [1]
ذهبوا ذهاب الأمس ما من مُخْبرٍ ... عنهم ، وزالوا كالظّلال الزّائلِ
وبقيتُ بعدَهمُ حليفَ كآبةٍ ... مستورةٍ بتجمُّلٍ وتحامُلِ [2]
سعِدُوا براحتهمْ وها أنا بعدهم ... في شِقْوة تُضنّني وهمٍ داخلِ [3]

قصيدة أخرى في زلزال شيزر

ما استدرجَ الموتُ قومي في هلاكهمُ ... ولا تخرَّمَهُمْ مثْنَى ووُحْدانا [4]
ماتوا جميعاً كرَجْعِ الطَّرْف وانقرضوا ... هل ما ترى تاركٌ للعين إنساناً [5]
لم يترك الموتُ منهم مَنْ يخبّرني ... عنهم فيوضحُ ما لا قوْه تِبيانا
هذي قصورُهمُ أمستْ قبورَهمُ ... كذاك كانوا بها من قبلُ سُكّانا
وَيْحَ الزلازلِ أفنَتْ معشري فإذا ... ذكرتُهم خِلتُني في القوم سكرانا
أَخْنَتْ على معشري الأدنَيْنَ فاصطَلمتْ ... منهم كهولاً وشباّناً وولدانا [6]
لم يَحْمِهِمْ حصنُهمْ منها ولا رهَبتْ ... بأساً تناذَرَهُ الأقرانُ أزماناً [7]
بنو أبي ، وبنو عمي ، دمي دَمُهُمْ ... وإنْ أرَوْني مناواةً وشنآنا [8]
يُطيِّبُ النفسَ عنهم أنهم رحلوا ... وخلّفوني على الآثار عجلانا [9]

---

(١) واهاً : أتحسّر . معالم : صُوَى . ممنّعات : مصونات . عقائل : جمع عقيلة ، وهي خيار النساء والمال . معاقل : حصون .

(٢) تحامل : تماسك . (٣) تضني : تؤلم .

(٤) تخرّمهم : أهلكهم . أبادهم الموت جُمْلةٍ واحدة ، ولم يأخذهم بالتدريج .

(٥) كرجع الطّرف : كطرفْة العين . (٦) أخنتْ :أفسدتْ .اصطلمت :استأصلتْ.

(٧) تناذرهُ : أنذر بعضهم به بعضاً ، وخوّفهم .

(٨) مناواة : أصلها مناوأة أي مباغضة . ومثلها شنآن .

(٩) رحيلهم صرف ما في قلبه من آثار حرمان عمّه له من الملك ، فصارَ الآن يَعْدُوْ وَراء أيِّ أثر من آثارهم يذكّره بهم .

في دمشق

ذهبتْ شيرز ، ذهبَ بها الزلزال ، فأمَّ الشاعر دمشق ، حيثُ آلُ طُغْتكين ، فقرّبه معين الدين أُنر ، آمر الجيش ، ومن كبار الشخصيّات السياسيّة في دمشق آنئذ ، وصار يعتمد عليه في إدارة شؤون البلاد ، وأحبَّ الناس أسامة وحسده بعضهم لكن معين الدين كان كلّما جاءته وشاية في أسامة من أحد حسّاده صرَفها ، فقال أسامة يمدحه بذلك الصُّنْع :

مُعِينَ الدِّيْنِ كم لك طوقُ منٍّ	**بجيدي مثلُ أطواق الحَمامِ**
تعبَّدني لكَ الإحسانُ طوعاً	**وفي الإحسان رقٌّ للكرامِ (١)**
فصار إلى مودّتك انتسابي	**على أنّي العظاميّ العصامي (٢)**
ألمْ تعلمْ بأنّي لانتمائي	**إليك رمى سواديَ كلُّ رامِ (٣)**
ولولا أنتَ لم يُصْحِبْ شماسي	**لقسْرٍ دون إعذار الحُسَامِ (٤)**
ولكنْ خفتُ من نار الأعادي	**عليكَ فكنتُ إطفاءَ الضِّرامِ**

حدوث الوقيعة بين أسامة وأنر

القتّاتون كالسّوس ، ينخرُ الأجسام والثمار حتى يفسدها ، فقد أنغلوا في الأخير قلب أنر على أسامة ، فجرى التجافي بينهما ، وشيء آخر أكبر ، هو أنّ سياسة أنر وصاحب دمشق قد نخرها السوس أيضاً ، فانحدرتْ إلى مستوى

---

(١) تعبّدني : جعلني لك عبداً .

(٢) العظامي : الذي يفتخر بآبائه وأجداده . والعصامي : الذي يعتمد على نفسه . يقول إن له نسباً مشرّفاً ، وهو في الوقت نفسه نبيل شريف .

(٣) سوادي : جسمي .

(٤) شماس : عناد . يُصْحب : يجعله ينقاد .

هابط مغرق في الخيانة لله ورسوله والذين آمنوا ، ذلك أنّ حكام دمشق من آل طغتكين لم يستجيبوا لنداء عماد الدين الزنكي في إقامة وحدة معه لمجابهة الخطر الصليبي ، فأراد إكراههم على تلك الوحدة بالقوّة ، فحاصر دمشق ، فإذا بمجير الدين آبق ، حاكم دمشق ، ومعين الدين أنر ، نائبه العامّ ، يراسلان الصليبيّين ، ويحرّضانهم على إنجادهما ، قائلَيْنِ في رسائلهما للصليبيّين : إنْ مَلَكَ عماد الدين دمشق فإنه سيملك من بعدها بيتَ المقدس ويحرّر السَّاحل كلّه .

من أجل ذلك لبّى الفرنجةُ دعوةَ آبق وأنر ، وهبّوا لنجدتهما ، ودارت الدائرة على عماد الدّين . ودخل معين الدين أنر بانياس وقتل عامل عماد الدين عليها ، وسلّمها للفرنجة ، وخان بذلك دينه وبلاده من أجل عَرَضٍ من الدينا ، وهو بقاؤه في منصبه ، مع أنه لو كان استجاب لعماد الدين ، فإنّه من المؤكد كان سيجعله في منصب مرموق .

وقال أسامة بن منقذ يشير إلى خطأَيْ أنر ، وهما استجابته لمنافسي ابن منقذ ، وتحالفه مع الصليبيّين :

بلِّغْ أميري مُعينَ الدينِ مألكةً ... من نازح الدّار لكنْ ودُّه أمَم (1)

هل في القضيّة يا مَنْ فضلُ دولته ... وعَدْلُ سيرته بين الورى عَلَمُ

تضيعُ واجب حقّي بعدما شَهِدَتْ ... به النَّصيحةُ والإخلاصُ والخدَمُ (2)

وما ظننتُكَ تنسَى حقَ معرفتي ... إنَّ المعارف في أهل النُّهى ذمَمُ (3)

ولا اعتقدتُ الذي بيني وبينك من ... ودّ وإن أجلب الأعداءُ ينصرمُ (4)

(1) مألكة : رسالة . أَمَم : قريب .

(2) الخِدَم : جمع خِدْمة .

(3) الدمّة : العهد .

(4) ينصرم : ينقطع .

لكـنْ ثقـاتَك مـا زالـوا بغشّـهم حتى استوتْ عندك الأنوارُ والظُّلَمُ
واللـه مـا نصحـوا لمـا استشـرتَهمُ وكلُّهم ذو هوىً فـي الـرأي متّهـم
كم حرّفوا من مقالٍ في سفارتِهم وكـم سـعَوْا بفسـادٍ ضـلَّ سَـعْيُهمُ
هبْنـا جنَيْنـا ذنوبـاً لا يكفرهـا عُذْرٌ فماذا جنى الأطفالُ والحرَمَ [١]
ألقيتَهـم فـي يـد الإفرنـج متّبعـا رضـا عداً يُسْـخط الرحمـنَ فِعْلُهُـمُ
هل فيهمُ رجلٌ يُغْنِـي غنـاتي إذا جلا الحوادث حـدُّ السيف والقلـمُ
ولستُ آسى على الترْحال من بلـدٍ شُهْبُ البُزَاةِ سواءٌ فيه والرَّخَـمُ [٢]

الرحلة إلى مصر

غادر أسامة بن منقذ دمشق متوجهاً إلى القاهرة ، وفي صحبته والدته وزوجته وأخوه محمد ، فأكرم الفاطميّون وفادته ، وحباه الحافظ لدين الله إقطاعاً سنيّاً ، فعاش فترة من حياته اتّسمتْ بالهدوء ، والابتعاد عن السياسة ، ولكنها لم تكن مستمرَّة ، وهو يشبّهها بمنامٍ سعيد كان يَنْعَمُ به ، ثم أفاق منه فجأة على واقعه المرّ :

نِلْتُ في مصر كلَّ ما يرتجي الآمـل – مـن رفعـةِ مـال وجـاهِ
فاستردّتْ ما خوّلَتْني ، وما أسـرع – نقضَ الأمورِ عند التّناهي [٣]
كـنـتُ فـيهـا كأنّني في منـامِ زال منه ما سَـرَّ عند انتباهي

مات الحافظ لدين الله ، وأعقبه الظّافر بالله ، وسرعان ما نشبت فتنة كبيرة في القصر انتهت بمقتل الظافر ، وينتقم طلائع بن رزيك من قاتل الظّافر ، وهو وزيره عباس الصنهاجي ، فيقضي عليه طلائع .

---

(١) الحرَم : النساء .

(٢) الشُّهْبة : لون بين الأسود والأبيض ، والبزاة الشهب : من أقوى أنواع العُقْبان .
الرَّخم : طيور ضعيفة .

(٣) خوّل : أعطى .

هنالك يأسى الشاعر ويحسّ بوطأة الغربة ، ويُعْرب عن نفوره لا من مصر نفسها ، ولا من أهلها ، وإنّما في الحقيقة من الحُكْم المضطرب فيها ، يقول :

يامصْرُ مادُرْتِ في وهْمي ولاخلَدي ... ولا أجَالتْكِ خَلْواتي بأفكاري [1]
ما أنتِ أوّلَ أرضٍ مسَّ تربتَها ... جسمي ولافيكِ أوطاني وأوطاري [2]
لكنْ إذا حُمَّتِ الأقْدارُ كان لها ... قوىً تؤلّفُ بين الماء والنّار

ويقول :

خمسون من عمري مضتْ لم أتّعِظْ ... فيها كأنّي كنتُ عنها غائبا
وأتتْ عليَّ بمصرَ عشرٌ بعدها ... كانتْ عظاتٍ كلُّها وتجاربا
شاهدتُ من لَعبِ الزّمان بأهله ... وتقلُّب الدنيا الرَّقُوبِ عجائبا

وتحدّث ابن منقذ في كتابه " الاعتبار " عن أطراف من تلك الفوضى التي تفشّت في قصْر الحكومة الفاطميّ . وهي فوضى جعلته يغادر القاهرة ، فعاد إلى دمشق ، ولكنّ عودته كانتْ كالفرار من مصر ، إذ نراه ينجو بنفسه مخلّفاً أسرته وكتبه ، وراسله الوزير طلائع بن رزّيك كيما يعود ، ووعده بأن يُقْطعه أسوان ، ويُسْند إليه ثغر الحبشة ، فأبى أسامة ، وطلب من طلائع أن يبعث إليه بأهله ومكتبته ، ففعل ، لكنّ السفينة التي أقلّتْهم وقعت في يد الصليبيين في عكا ، فأخذوا ما فيها من أموال ، وكان مما أخذوه مكتبته الخاصّة ، وكانت تحتوي أربعة آلاف مجلّد ، ولا شكّ أنها خسارة كبيرة ،

---

(١) خلدي : بالي ، عقلي .

(٢) أوطار : حاجات .

لنقّدرْ بحسب قيمة الكتب في عهدنا : كم ثمن أربعة آلاف مجلد ؟ والعلماء يربّون مكتباتهم تربية ، فلها في نفوسهم مكانة خاصّة ، إذ هي لديهم أفضل ما يكنزون ، وقد شكا حالته بعد هذه النكبة إلى طلائع بن رزّيك في قوله :

يا أخا البيد والسُّرَى وأخي البَرَّ – إذا عقَّني أخ ونَسِيبُ
أنا أشكو إليك دهراً لحا عو دي وأعراه ، فهو يبس سليبُ

مع نور الدين في دمشق

مازال نور الدين زنكي على إصراره في توحيد البلاد لمجابهة الغزو الصليبي حتى استطاع أن يقضي على الحكومة الانفصاليّة لآل طغتكين في دمشق سنة ٥٤٩ هـ ، تلك الحكومة التي كانت قد آثرت التعامل مع الصليبيين ضدّ المسلمين .

وكانت عودة أسامة إلى دمشق في هذه السنة نفسها ٥٤٩ هـ .

فكيف كانت معاملة نور الدين لأسامة ؟

كان نور الدين وَرِعاً محفوظ القلب مهديَّ اللُّبّ ، ففتح سجلّ تاريخ أسامة ، فإذا فيه الصحيح والخاطئ .

كان أسامةُ من أعوان عماد الدين زنكي لفترةٍ من الزمن . وما لأبعد ذلك أعداء عماد لدين ، أي مجير الدين آبق ووزيره معين الدين أنر ، وصحيح أنه تركهما وذهب إلى مصر حين تعاملا مع الصليبيين ، لكنّ تركه بسبب وشايات منافسيه ، لذلك رحل وهو يردّد ذكريات المودّة لأنر ، كما في مطلع قصيدته التي تعدّ أقوى قصيدة انتقادية لحكام دمشق آنئذ :

بلِّغْ أميري مُعينَ الدين مألكةً من نازح الدار لكنْ ودُّه أمَمُ

إذاً ما يزال يحمل مودّة لهم بعد رحيله !

والآن عاد ، فأين كان ؟ كان تحت كنف الفاطميّين ، وإكرامهم ، وها هي ذي الرسائل ما تزال تتبادل بينه وبين وزيرهم طلائع بن رزّيك ، وهناك أسرار غامضة ، إذ تشير بعض المصادر القديمة إلى أن لأسامة بن منقذ ضلعاً في مقتل الظافر . ورأينا أن طلائع انتقم له من الوزير عباس الذي أطاح به . فهل المراسلات بينه وبين أسامة تتّسم بالإخلاص ؟ وهل انتقام طلائع للظافر لا تشوبه أهداف في نفسه أُخْرى ؟

لم تغب هذه الأمور عن نور الدين .

وكان نور الدين تقيّاً ، على طريقة الصحابة رضوان الله عليهم ، وعلى طريقة عمر بن عبد العزيز ﷺ ، لا يسخو بالمال على الشعراء ليمدحوه ، فهو يجاهد في سبيل الله ، فما له وللتزلّف إليه أو إطرائه ؟

من أجل ذلك كلّه لم يَرْتحْ أسامة تماماً ، لأنّه لم يأخذ حَجْماً كبيراً عند نور الدين ، فلم يستوزره ولم يسْتَنبْه [1] لكنّه لم يحرمْه من أن يشترك في أعمال الجهاد ، وتداول شؤون المسلمين .

ومن الأعمال الجهادية التي شارك فيها أسامة – مع أنّه كان كَبيرَ السنّ – ركوبه في جيش نور الدّين لمحاصرة قلعة حارم .

ومن الأمور التي اشترك فيها مما يتعلّق بتداول شؤون المسلمين مراسلته لطلائع بن رزّيك باسم صلاح الدين .

---

(١) لم يَسْتنبْه : لم يجعله نائبه .

بين أسامة وطلائع [1]

كان طلائع من أفضل وزراء الفاطميّين في مواجهة الصليبيّين ، وكأنّه أراد أنْ يعوّض التقصير الذي بدا من حكام مصر في تلك الآونة ضدَّ الأطماع الإفرنجية ، ولا سيّما في بداية الغزو الصليبي ،وكان يودّ لو يضمّ قوّة مصر إلى قوّة نور الدين ، لتتكوّن منهما قوة ضاربة تخضد شوكة الصليبيين ، وقد وَجّه طلائع رسالة شعرية إلى صديقه أسامة ، هي في الحقيقة رسالة إلى نورالدين نفسه ، في موضوع توحيد الجيشيْن ضد العدوّ المشترك يقول في تضاعيف قصيدته :

فقُولوا لنور الدِّين لا فُلَّ حدُّهُ ... ولا حكمتْ فيه الليالي الغواشِمُ [2]
تجهَّزْ إلى أرض العدوِّ ولا تَهُنْ ... وتُظْهرْ فتوراً أنْ مضتْ منك حارمُ
فقم واشكر اللهَ الكريمَ بنهضةٍ ... إليهمْ ، فشكرُ اللـه للخلقِ لازمُ
فنحنُ على ما قد عَهِدْتَ نروعُهمْ ... ونحلفُ جهْداً أنّنا لا نسالمُ
وغارتُنا ليستْ تُفَتَّرُ عنهمُ ... وليس ينجّي القومَ منها الهزائمُ
وأسطولُنا أضعافَ ما كان سائراً ... إليهم فلا حصنٌ لهم منه عاصِمُ [3]

---

(١) طلائع بن رزّيك ، الملقّب بالملك الصالح ، أصله من الشيعة الإماميّة في العراق ، قدم مصر فقيراً ، فترقى في الأعمال حتى ولي وزارة الفائز الفاطمي سنة ٥٤٩ هـ ، واستقل بأمور الدولة ، وجاء العاضد بعد الفائز سنة ٥٥٥ هـ ، فتزوج بنت طلائع ، وقتله غيلة سنة ٥٥٦ هـ . وكان طلائع شجاعاً جواداً شاعراً ، كثير الغزو للصليبيّين ، إذا ما قيس بغيره من زعماء مصر وقتذاك .

(٢) لا فلّ حدّه : يدعو له بدوام العافية والقوّة . الغواشم : الظالمة .

(٣) ليس هنالك حصن للصليبيين يقيهم فتك الأسطول المصري . هذا الادّعاء لا يخلو من مبالغة .

واطّلع نور الدين على هذه القصيدة ، فعهد إلى أسامة بن منقذ أن يجيب عنها ، فتحدّث عن جهاد نور الدين ، وسراياه وأساطيله ، وتفاءل بذلك اليوم الذي يجتمع فيه الملكان المجاهدان فتفتح البلاد المغلوبة على أمرها ، ويُقضى على الفرنجة :

وقد شمَّر الملْكان في الله طالبَيْ رضاه ، بعَزْم لم تَعُقْهُ اللَّوائمُ [1]
بجِدٍّ ، هو العَضْبُ الحُسَام وحدُّهُ لعاديةِالأعداء والكفْرِ حاسمُ [2]
وقاما بنصر الدين ، واللهُ قائمٌ بنصرهما ، ما دام للسيف قائمُ
ومادونَ أنْ يَفْنى الفرنجُ وتُفْتَحَ البلاد – سوى أن يُمضيَ العَزْمَ عازمُ

قصيدة أخرى وجوابها

وكتب طلائع إلى أسامة قصيدة ثانية ، ومطلعها :

أبى الله إلاّ أنْ يَدينَ لنا النَّصْرُ ويخدُمنا في ملكنا العزّ والنَّصْرُ

وتحدّث فيها طلائع عن وقائعه وسراياه إلى الإفرنج ، وأسماء القادة المصريّين ، فيردّ عليها أسامة بقصيدة تحدث فيها أيضاً عن جهاد نور الدين وفتوحاته ، والبلاد التي تمّ تحريرها على يديه ، وعدّد أسماء ملوك الفرنجة الذين قتلهم أو أسرهم أو هزمهم . ومما قال في قصيدته :

أبى اللهُ إلاّ أن يكون لنا الأمْرُ لتحيا بنا الدُّنْيا ويفتخر العَصْرُ
بطاعتنا لله أصبحَ طوعنا الأنام فما يُعْصَى لنا فيهمُ أَمْرُ

---

(١) لم تعقه اللوائم : لا يخاف في الله لومة لائم .

(٢) الغضب : السيف . عادية : عدوان . حدّ السيف يحسم أي يقطع عدوان الأعداء والكفّار .

جعلْنـــا الـجـهـــادَ همَّنا واشتغالَنا ... ولم يُلْهِنا عنه السَّماع ولا الخَمْــرِ
دماءُ العِدَا أشهى من الرَّاح عندَنا ... ووقْعُ المواضي فيهمُ النَّايُ والوَتْرُ
بِنا أُيِّدَ الإســـلامُ وازدادَ عـــزّةً ... وذلَّ لنا من بـعـد عزِّتــه الكُفْـــر

ويتحدث عن أمـل نـور الديـن الـذي كـان أمـل كـل المسـلمين ، وهـو استعادةُ البيت المقدس والصَّخْرة المشرّفة :

ونرتجع القُدْسَ المُطهَّرَ منهمُ ... ويُتْلى بإذن الله في الصَّخْرة الذِّكْرُ(١)

ويذكر بعض شمائل نور الدين ، ورحمته ، إذ ردّ لأهل الشَّام ممتلكاتهم ، ووضع المكوس عنهم :

بنا استرجع الله البلادَ،وأمَّن العبادَ ... - فــلا خــوفٌ عليهـــم ولا قَهْـــرُ
ردَدْنـا علـى أهـل الشَّـآم ربـاعَهُمْ ... وأمركهم ، فانزاح عنهم بها الفَقْرُ
فنـالَهمُ مـن عَوْدهـا الخيرُ والغنـى ... كما نالنا مِنْ رَدِّهـا الأجرُ والشُّكْرُ
ونحنُ وضعْنا المكسَ عن كل بلـدةٍ ... فـأصبح مسـروراً بمَتْجَـره السَّـفْرُ
وأصبحت الآفاقُ مـن عَدْلنـا حِمـىً ... فكُدْرُ قطاهـا لا يروعُهـا صقْــرُ (٢)

ويتحـدث عـن موقـف بعـض الملـوك المسـلمين ، وينـدِّدُ بإحجـامهم وتردُّدهم ، وبركون بعضهم إلى القول لا الفعـل ، وكأنـه يعـرّض بحكـام مصـر آنئذ ، ويشيد بزهادة صلاح الدِّين :

---

(١) حاوَل نور الدين أن يهيّئ الأسباب لذلك ، ثمّ جاء من بعده صلاح الديـن ، فحقّق الله على يديه أمل نور الدين .

(٢) الكُدْرة : لون رمادي هو لون الإبل .

فكيــف تَســامينا إلـــى العُـــلا وعَزْمُهـمُ سِـرٌّ ، ووقعاتُنــا جَهْـرُ
وإنْ وعـدُوا بــالغزْو نظْمــاً فهــذه رؤوسُ أعــاديهمْ بأســيافنا نَــثْرُ
مَلَكْنـا الـذي لـم تحـوه كـفّ مــالكٍ ولـم يغرنـا تيهُ الملوك ولا الكِـبْرُ
عزفْنـا عن الدُّنيا على وجْدِها بنـا فمنها لنا وصْـلٌ ، ومنَّا لهـا هَجْرُ
فقُلْ لملوك الأرض:ماالفخرُ في الذّي تعدونه من فعلكم ، بل كـذا الفَخْرُ

عدم نجاح فكرة اتحاد الجيشين

لم تنجحْ فكرة طلائع وأسامة ؛ لأسباب ، منهـا أن نـور الدين لم يَنْسَ تقصير حُكام مصر في بدايات الغـزو الصَّليـبيّ ، ومنهـا أنّ طلائـع على حماسته لمجاهدة الصليبيين كـان قَـوَّالاً أكـثرَ منـه فعّـالاً ، وبخاصّـة إذا قيـس بنـور الديـن وجهاده العملي .

وأهمُّ من هذا وذاك أنَّ نور الدين لم يكن يقرّ حُكّام مصر على انبتـارهم عن بغداد التي كان يُذْعن لها بالوَلاء التَّامّ ، فهو لا يتعاون مع جيش منشـقّ عـن الخلافة الشرعية حتى يعود ذلك الجيش إلى إعلان الطَّاعة لها ، وهـذا مـا حـدث بشكل ما على يد صلاح الدين .

على أنّ العمر تقدَّم بأسامة بن منقذ ، وكلّما عَتا عُمُر المـرء كـان أكـثرَ تشبّثاً برأيه ، بصفة عامّة ، وكان رأي أسامة أقرب إلى رأي طلائـع ، ولكنّـه في شعره نطق بلسان حال نور الدين ، وبعبارة أخرى أعـرب عـن الموقـف الرسمـي للسِّياسة الزنكيّة ، وهكذا حدَثتْ عدّة أسـباب بأسـامة كيمـا يعـتزل السياسـة ، ويُخْلدَ إلى حياة هادئة في حصن كيفا عند جزيرة ابن عمر ، في الشرق الشَّـمالي من القامشلي . السبب الأول : تقدّم عمره ، والسبب الثاني تخالفـه مـع سياسـة نور الدين ، من بعض وجهات النظر ، والسبب الثالث: موقف نـور الديـن مـن

الشعراء ، وعدم إعطائهم أو غمْرهم بالمال ، وإيثارهُ أن يُنفق المال على السّلاح والحرْب ، وأشار أسامة إلى طرف من هذا حين قال :

أميرُنا زاهدٌ والناسُ قد زهدوا — لـه ، فكلٌّ علـى الطاعـات منكمِشُ
أيّامه مثل شهر الصَّوم طـاهرةٌ — من المعاصي وفيها الجـوع والعطشُ

ولم تكن أيامه أيام جوع وعطش بالمعنى الدقيق ، إنّما لم تكن أيام بحبوحة من العيش ، لأن الرجل كان يواجه جيوش أوربا كلّها ، فهل ثّمة سبيل إلى التَّرَف ؟

خاتمة

جاء بعد نور الدّين صلاح الدّين ، وكان بينه وبين أسامة صداقة قديمة ، فاستدعى الشاعر إلى دمشق ، وأقطعه داراً ، وعُمّر أسامة قرابة قرن من الزمان (٤٨٨ – ٥٨٤ هـ) . وفي شعره ملامح من الأساليب العباسيّة الفخمة أحياناً ، مع ذلك لم يمثّلْ شعره طموحه الأدبي ، لذلك قال:

كلّما ردّدْتُ في شعري النَّظَـرْ — بـانَ ضعْفُ العِيّ فيـه وظهـرْ
ليس يُرضينـي ، ولا يُمكنُنـي — جحْدُ ما قد شاعَ منه واشتهر
وبـه فقـرٌ إلـى ذي كـرمٍ — إن رأى ما فيه من عيب سَتَرْ

ولأسامة إضافة إلى ديوانه الشعري مجموعة من الكتب ألّفها .